حروب بلاغية:
مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة

عماد عبد اللطيف

إن هؤلاء الذين استطاعوا تقليد الثعلب أحسن تقليد، نجحوا كل نجاح.

– مكياڤيللي، **كتاب الأمير**

أنصتْ جيداً إلى الكلمات، تجدْ صحيحَ اللفظ كنقيضه؛ ذلك أن وجه المعنى الذي يتبدَّى هنا، يحجبُ نقيض الإشارة في الوجه الأخفى هناك.

– لاو تسو، **كتاب الطاو**

إذا كانت الحرب هي الوجه الأكثر عنفاً للسياسة، فإن الثورة هي الوجه الأكثر براءة للحرب. فالثورة صراع ضارٍ بين قوتين؛ كلٌّ منهما تبغي الهيمنة على المستقبل. وعلى الرغم من أن معظم الثورات لا تخلو من المقاصل، فإن قوتها الحقيقية إنما تكمن في الشعارات والهتافات والبيانات والتشكيلات الرمزية للحشود. وكلما حُيِّدت قوة السلاح المادية، هيمنت قوة الخطاب الناعمة على ساحة الثورة. وسوف تُكرَّس هذه المقالة لاستكشاف مناورات خطاب السلطة في ساحة الثورة المصرية وتحليله.

لقد كانت ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ حرباً بين بلاغة النظام القائم وبلاغة القوى الثورية، حاولتْ كل منهما تحقيق أقصى قدر من الإقناع والتأثير، تمهيداً لإزاحة الأخرى، والسيطرة على ساحة الكلام. تلك الساحة التي اتسعت بفعل الثورة لتشمل – بالإضافة إلى قنوات التلفاز والصحف والإذاعات والحوارات الشخصية والندوات – ساحات الشوارع وحوائط المنازل وأعمدة الإنارة وأسطح الدبابات.

كانت خطب مبارك أثناء الثورة رأس حربة النظام في صراعه مع الثوار. غير أن هذا ليس هو السبب الوحيد للاهتمام الكبير الذي تحظى به في هذه المقالة. فقد كانت الخطب الثلاث أيقونة لخطاب النظام بأكمله، تحمل كل سماته وملامحه مكثَّفةً في ملفوظات محدودة. كما أنها مارست دوراً محورياً على مسرح الثورة المصرية، وكانت – بلا

منافسة – الأحداث الخطابية الأكثر تأثيراً في مسارها. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذه الخطب كانت تضع قواعد المناورات الخطابية التي يسترشد بها الفاعلون المسهمون في إنتاج خطاب السلطة على المستوى الجماهيري؛ وبخاصة في وسائل الإعلام الرسمية. كانت الخطب بالنسبة إلى هؤلاء أشبه بكتيِّب تعليمات يتضمن الاستراتيجية التي عليهم تنفيذها في صراعهم ضد الثورة.

لهذه الأسباب، سوف أركز على تحليل أهم المناورات الخطابية التي استُخدمت لإيقاف مدِّ الثورة المصرية، أو تقليل مداها وتحجيم آثارها. وأتوقف أمام أربع ظواهر أساسية هي: السيطرة على سياق إنتاج الخطب وتداولها، ولغة الخطب، وتقنيات مدح الذات، وتمثيلات الماضي وسيناريوهات المستقبل. ولأن هذه الخطب كانت تناور خطاب الثورة وتحاوره وتفنده، فإن هتافات الثوار وشعاراتهم وأيقوناتهم ولافتاتهم سوف تحظى هي أيضاً ببعض الاهتمام.

مَنْ يُمسك بخيط الكلام؟
تقنيات السيطرة على سياقات إنتاج الخطاب وتداوله

٢٧٥٠ كلمة في ثلاث خطب، لم يستغرق إلقاؤها أكثر من ٣٩ دقيقة، هي مجمل ما خاطب به الرئيس المصري السابق حسني مبارك الشعب المصري مباشرة، منذ بدأت الثورة على نظامه في ٢٥ يناير ٢٠١١ حتى «تخليه عن السلطة» في ١١ فبراير ٢٠١١. هذه الكلمات القليلة، التي أُلقيت في أيام ٢٨ يناير والأول والعاشر من فبراير على التتابع، كانت عظيمة التأثير في مسار الأحداث لصالح السلطة القائمة أو ضدها. وسوف تظل تشكل جزءاً من الذخيرة الخطابية الأكثر حياة في ذاكرة مَن عاشوا تلك اللحظات التاريخية.

تشترك الخطب الثلاث في أنها جاءت جميعاً في شكل كلمات مرئية مسجلة، وليس في شكل خطب أمام جمهور أو تسجيلات حية مباشرة أمام كاميرا.(١) وهو ما يعني وجود مسافة زمنية بين زمن إنتاج الخطب وزمن تداولها، قد تقصر أو تطول. فما أسباب اختيار هذا الشكل دون غيره من أشكال التواصل المتاحة؟ سوف أحاجج فيما يأتي بأن هذه الأسباب وثيقة الصلة بالسعي إلى السيطرة على سياق إنتاج الخطب الثلاث وتداولها.

عادةً ما يلتزم مبارك في خطبه بالقراءة من نص مكتوب معدٍّ سلفاً، ونادراً ما يخرج عنه ليقوم بعمل استطرادات أو حوارات مباشرة مع الجماهير. قد يرجع ذلك إلى ضعف نسبي في مهارات التواصل الجماهيري، أو إلى حدة وقسوة غالباً ما كانت تسم تلفظاته

المرتجلة.[٢] لكن المؤكد أن الالتزام بهذا النمط في الخطابة يُقلل من الكلفة الباهظة التي يمكن أن يؤدي إليها الخروج عن النص؛ وبخاصة في الظروف بالغة الحساسية التي تكون الكلمات فيها محمَّلة بطاقة غير عادية على الفعل، مثل ظرف الثورة. إضافةً إلى ذلك، فإن تسجيل الخطب يتيح الإفادة من تقنيات المونتاج، التي تسمح بإنتاج نسخ عديدة من الحدث الخطابي نفسه والتوليف من بينها لإخراج نسخة واحدة تتلاشى سلبيات كل منها، وتُراكِم إيجابياتها. ولا تتوقف مزايا هذه الكلمات المسجلة، بوصفها شكلاً من أشكال التواصل السياسي، على الإمكانات التي تقدمها لإحكام سيطرة السياسيين على سياق إنتاج خطبهم السياسية، بل تتجاوزها إلى أمر أكثر أهمية وخطورة هو إحكام السيطرة على سياق تداولها، من خلال التحكم بأقصى قدر ممكن في وقت التداول وكيفيته وحال المتلقين.

لقد كان حلم السيطرة على سياق تداول الكلام السياسي حلماً عسيراً رَاوَدَ السياسيين منذ زمن طويل. فلكي تورق بذور الكلام السياسي، لا بد وأن تُحرَث لها جيداً نفوس الجماهير وعقولها. فما سمات العقول والنفوس المحروثة؟ يمكن أن نتلمس إجابات عن مثل هذا السؤال من التاريخ والعلم. كان الديكتاتور النازي أدولف هتلر يختار مخاطبة جماهيره حين ينهكها التعب، بعد طقوس احتفالية طويلة، أو إثر ساعات عمل منهكة. فحين تُنهَك الأجساد، وترتخي الأعضاء، وتتباطأ الحركة، تضعف قدرة الشخص على التفكير النقدي التفنيدي، ويميل إلى تلَقٍّ أكثر سلبية لما يسمعه (حاتم، ص ص ٥٧٠–٥٧١). وهذا غاية ما يتمناه السياسي؛ فالمستمع أو المشاهد الذي يؤمِّن على ما يقوله السياسي أيّاً يكُن، هو المستمع أو المشاهد النموذجي في حقل السياسة، حيث الغاية هي الاستحواذ على السلطة وممارستها أكثر من أي شيء آخر.

إن ما أنجزه علم اللغة المعرفي Cognitive Linguistics – وبخاصة في العقد الأخير – من بحوث مهمة تتعلق بأثر العوامل المادية المحيطة بتلقي الخطاب في معالجته، فهماً وتأويلا ونقداً، بالغ الأهمية في تبيان أثر السياق في معالجة الخطاب.[٣] ولا يقل عن ذلك أهمية الدراسات الكثيفة حول الحرب النفسية وغسيل الدماغ، وأثرها في تعميق فهمنا لطرق تغيير أفكار الأفراد ومعتقداتهم واتجاهاتهم، من خلال السيطرة على ظروف تلقيهم للكلام الذي يُراد منهم الإيمان به والاعتقاد فيه (عبد الله، ص ص ٢٣–١٥١). ويمكن تلخيص إحدى النتائج المهمة لهذه الدراسات في أن المرء يصبح أكثر قابلية للتأثر بخطاب ما حين تُشَلُّ قدرته العقلية النقدية بإدخاله في حالة رعب وتخويف شامل، وإنهاكه جسدياً وذهنياً، وسلبه الثقة في القدرة على الفعل أو الاستجابة. حين

يكون المرء في مثل هذه الحالة، يصبح أميل غالباً إلى قبول ما يتلقاه والاقتناع به دون مساءلة، إذا لم يكن ما يتلقاه يصطدم بشكل مباشر وكامل مع قناعات مترسخة طويلة الأمد.

وفي الواقع، فإن تداول خطبة ٢٨ يناير رافقته ظروف شبيهة بتلك التي ترتبط بغسيل الدماغ. فلم تُذَع الخطبة إلا في وقت متأخر من الليل – على الرغم مما أشيع من أنه تم تسَجيلها في وقت مبكر – بعد أن خرج البلطجية والمساجين من سجونهم وأوكارهم، وبدأت حملة إرهاب ورعب شامل، أسهمت فيها زخات الرصاص التي كانت تُسْمَع في كل مكان في مصر تقريباً، ومكالمات الاستغاثة التي لا يمكن تخيلها حتى في أكثر أفلام الرعب توحشاً، وهدير الإشاعات التي تقتلع طمأنينة النفوس. اقترن هذا الرعب المادي بحالة إنهاك جسدي شاملة بعد يوم حافل من التظاهر، أو متابعة التظاهر، وساعات مضنية في الشوارع في برد ليلة من ليالي يناير لحماية الأعراض والبيوت. وأخيراً، يأتي عامل الانتظار والتوقع الذي صاحب المصريين منذ أعلن التلفاز عن بث كلمة الرئيس حتى إلقائها، وهو وقت استمر عدة ساعات، ظلت طوالها نفوس الجماهير وعقولهم مشحوذة متأهبة، حتى أصابها الإنهاك. في هذه الساعات، تواصلت عملية شحن الجمهور من خلال تذكيره الدائم عبر شريط الأخبار المتواصل بأن الرئيس سيُلقي خطبة «بعد قليل»، وظهور محللين ومعلقين يحاولون التنبؤ بما ستتضمنه الخطبة. وأخيراً، بعد أن يتم حرث نفوس الجمهور وشل عقولها وإنهاك أجسادها، يخطب الرئيس فيُلقي بذرة كلامه في الجماهير التي ترقد قلقة. فتنمو بذرة الشلل في النفوس، في حين تستمر معالجة الخطبة في الأدمغة أثناء النوم. وهكذا، تتم السيطرة على سياق تداول الخطبة، بما يتيح أقصى فعالية لها.

من الطبيعي أن يتوازى حرص نظام مبارك على تطويع سياق إنتاج الخطب وتداولها مع حرص مماثل على تطويع بنية لغتها وتراكيبها على نحو يتيح للسلطة القائمة أقصى درجة من التأثير. ويحتاج هذا إلى تحليل أكثر تفصيلاً.

الفصحى والعامية: الصراع بين سلطة التفويض وقوة الخطاب

تشترك الخطب الثلاث في كونها تستخدم لغة عربية فصحى. يبدو هذا الاستخدام متسقاً مع فرضية هشام شرابي الخاصة بأن الفصحى هي لغة الأنظمة الأبوية المستبدة (ص ص ١٠٥–١٠٦). فالخطب الثلاث لم تستخدم الفصحى المعاصرة فحسب، بل استخدمت تراكيب ومفردات وتعبيرات تنتمي إلى فصحى التراث؛[٤] وبخاصة في

المواقف الحساسة من خطبه، مثل استخدام مبارك – في خطبة ٢٨ يناير – للتركيب التراثي «لا ديمقراطيةً حققتْ، ولا استقراراً حفظتْ»[٥] في سياق تهديده بما سيؤول إليه حال مصر لو استمر المحتجون في الاحتجاج. واستخدامه – في خطبة الأول من فبراير – لصيغة «أَفْتَعِلُ» من الفعل «نوى»، في عبارته الشهيرة التي تحتمل معنى عدم ترشحه لانتخابات الرئاسة التالية: «لم أكن أنتوي الترشح لفترة رئاسية جديدة». واستخدامه – في خطبة العاشر من فبراير – لتعبير توكيدي مثل «الحرج كل الحرج، والعيب كل العيب»، في تصويره لتنازله عن السلطة بأنه استماع للإملاءات الأجنبية.

من المؤكد أن مثل هذه الاستخدامات تنجز أغراضاً خاصة في السياقات اللغوية co-texts التي ترد فيها؛ فاستخدام فعل «أنتوي»، غير المألوف بالنسبة إلى المواطن المصري العادي،[٦] يؤدي إلى غموض دلالي، يُنتج بدوره فجوة في المعنى، تسمح بفتح الباب أمام تأويلات عدَّة؛ تقوم بوظائف تداولية، من أهمها حِفظ الوجه الإيجابي للرئيس من خلال الدفع بأن نية عدم الترشح سابقة على أحداث الثورة. بينما يُبقي البعض الآخر الباب مفتوحاً لعدول الرئيس – لو فشلت الثورة – لاحقاً عن ما «انتواه»، بالطبع بعد تهيئة الأجواء لكي يبدو أن الشعب هو صاحب إرادة العدول وقراره.

أما تركيب «لا ديمقراطيةً حققتْ، ولا استقراراً حفظتْ» فهو يولِّد إيقاعاً – بواسطة السجع والتوازي النحوي – يجتذب الأذن إلى موسيقية الكلمات؛ فيُلهي العقل عن التفكير النقدي في العبارة التي تضع «الديمقراطية» في مقابل «الاستقرار»، وهكذا يتم تمرير التهديد المضمر بأن أية مطالبة جذرية بالحرية مآلها «الانزلاق إلى الفوضى والانتكاس» – بمفردات مبارك نفسها في الجملة السابقة مباشرة.[٧] وبالمثل، فإن تعبير «الحرج كل الحرج» يستهدف الإلحاح على ما سيقدم بوصفه سبباً للحرج، ووضعه في بؤرة النص. والتعبير الذي تكرر تسع مرات في الخطب الثلاث بتنويعات مختلفة هو نوع من التوكيد اللفظي بواسطة التكرار والقصر.

كثيراً ما يقترن الاستخدام المكثف لأساليب التوكيد المركبة بوجود فجوة مصداقية بين المتكلم والجمهور تحاول هذه الأساليب تجسيرها؛ وهو ما يفسر أن الخطبة الأخيرة – التي صاحبها اتساع فجوة مصداقية مبارك لدى شرائح واسعة من المصريين – حافلة بأدوات التوكيد بكل أنواعها، وتتضمن بمفردها ستاً من تنويعات التعبير السابق التسع، تتكثف في الفقرتين الأوليين من الخطبة، وهي: «تألمت كل الألم»، «أسفت كل الأسف»، «عازم كل العزم»، «حريص كل الحرص»، «الحرج كل الحرج»،

«العيب كل العيب». لقد كان المخاطَب النصي في الخطبتين الأوليين هو الشعب المصري عامة، كما تحيل إليه عبارة النداء الشهيرة «أيها الأخوة المواطنون»، التي تكررت في الخطبتين الأولى والثالثة ثلاث مرات، وفي خطبة الأول من فبراير مرتين. وعادةً ما كانت تقوم بدور المفْصل الذي يربط بين أجزاء الخطبة كمياً ودلالياً. لكن خطبة العاشر من فبراير شهدت تغيراً في طبيعة المخاطب النصي؛ فقد افتُتحت بعبارة «الإخوة المواطنون، الأبناء شباب مصر». وأعقب ذلك مباشرةً استخدام أسلوب قصر خبري، يستبعد «الأخوة المواطنون» من مشهد التواصل المباشر، ويضع «الأبناء» في صدارة موقع المخاطَب النصي: «أتوجه بحديثي اليوم لشباب مصر بميدان التحرير وعلى اتساع أرضها، أتوجه إليكم جميعاً بحديث من القلب حديث الأب لأبنائه وبناته». ولأن فجوة المصداقية كانت عميقة بين «الرئيس الأب»، و«الأبناء شباب مصر»؛ فقد استُخدم حشد من أساليب التوكيد في محاولة لتجسيره، كان من أبرزها التوكيد اللفظي الذي يجمع بين التكرار والقصر.

ويمكن المحاجة بأن استخدام مفردات عديدة تنتمي إلى فصحى التراث – مثل مفردات «الانزلاق» و«الانتكاس» و«أنتوي» في العبارات السابقة – يقوم بوظيفة تداولية مهمة هي نشر ضباب الغموض الدلالي في مواضع محددة من الخطب. إضافة إلى ذلك، فإن استخدام الفصحى في هذه الخطب يفيد من الروابط الراسخة بين النظام السياسي للدولة المصرية والعربية الفصحى؛ حيث يُسهم في تأسيس شكل من التراتبية، يساعد النظام في إنجاز أغراضه. وذلك من خلال وضع مسافة بين النظام الحاكم وأفراد المجتمع، توازي المسافة بين العربية الفصحى التي يستخدمها النظام والعامية التي يتحدثها الشارع؛ بما تتمتع به الأولى من مكانة وقداسة ورأسمال رمزي كبير، في حين يُنظر إلى الثانية بوصفها نتاجاً مشوَّهاً من الأولى، وجديرة بالتبعية لا الاستقلال، بما لها من مكانة دونية.(٨)

تفسر هاتان الوظيفتان إلى حد كبير لماذا جاءت في المقابل معظم تجليات خطابات الثوار باللغة العامية المصرية. فقد تبنت أغلب لافتات الثورة وهتافاتها ونكاتها وأغانيها «لغة الشارع» الثائر؛ فجاءت مباشرة، لا تُداعب الإبهام؛ واضحة، لا تقتات على التآويل؛ سهلة المأخذ، لا تحتمي بالمفردات المهجورة؛ وتنجز أغراضها بقوة المعنى، وليس بسلطة التفويض. لقد ذهب بورديو إلى أن الكلام السياسي يستمد سلطته من سلطة «التفويض» التي يحوزها السياسي المتلفِّظ به؛ أيْ الصلاحيات السلطوية التي يمتلكها بفعل وظيفته ومكانته (كما ورد في بغورة، ص ص ١٨٨–١٩٠)؛ مثل الصلاحيات الرئاسية في حالة الخطب المدروسة. ومن الواضح أن كلام الثوار، ممن

يفتقدون إلى صلاحيات سلطوية، يستمد سلطته من المعاني الثورية التي ينتجونها، ومن قوتهم المادية على الأرض، المتمثلة في التظاهر والاعتصام، إلخ. ويمكن المحاججة بأن فعل الثورة نفسه هو محاولة لسلب سلطة التفويض من الحاكم.

لقد تعددت ساحات الصراع الخطابي بين السلطة القائمة والثورة. فكانت مستويات اللغة ساحةً للصراع بين بلاغة الفصحى وبلاغة العامية. وكانت الأنواع الكلامية ساحة للصراع بين الخطابة، من جهة، والهتافات واللافتات والنكات والأغاني والكاريكاتيرات والملصقات والمنشورات، من جهة أخرى. وكان سياق التواصل ساحة صراع بين تواصل رسمي؛ بدا متسماً، بالإضافة إلى جديته وصرامته، بالجهامة؛ وتواصل شعبي كان - مع جديته وصرامته أيضاً - متسماً بمرح، وصل في بعض الأحيان حد الهزل. وأخيراً، كان مضمون الخطاب ساحة للصراع بين خطابٍ مادح لنفسه، يتغنى بذاته ومنجزاته على مدار ثلاثين عاماً، وخطابٍ هجائيٍ مفنِّد، لا يترك مزية إلا وحولها إلى نقيصة.(٩) هذا الشكل من الصراع سوف يكون محور بحث تفصيلي فيما يأتي.

مدح الذات واستراتيجيات الانتقاد المستتر لخطابات الثوار

لقد أدرك أرسطو في دراسته الفذّة عن الخطابة أن الصورة التي يرسمها الخطيب لنفسه داخل خطبته بالغة الأهمية في إنجاز الوظائف التي تسعى إلى تحقيقها؛ فالخطبة - أية خطبة - تنجز أغراضها إما بواسطة الاحتكام إلى حجج أو براهين تتجه إلى إحداث إقناع عقلي للجمهور logos، و/أو التلاعب الانفعالي والعاطفي بمشاعره، الذي يتوجه نحو إحداث تأثير في نفسيته وروحه الجمعية pathos، و/أو تطويع الصورة التي يقدمها الخطيب لنفسه، والتي تتوجه نحو إضفاء ملامح مصداقية وأهلية على شخصه، وتجرُّد وحيادية على خطابه (مدح الذات)، بما يسمح لكلامه بأن يُنجز أغراضه بسهولة نسبية ethos (أرسطو، ص ص ٢٩-٣٠).

عادةً ما تستخدم كل الخطب هذه الأدوات جميعاً بدرجات مختلفة، تتباين بحسب نوع الخطبة وظروفها وأغراضها. فخطبة علمية تُوجه إلى جمهور من الباحثين يُتوقع منها أن تقلل من الاعتماد على التأثير النفسي في مقابل اعتماد أكبر على الحجج والأدلة والبراهين، وذلك في مقابل - مثلاً - خطبة دينية وعظية تتوسل بتقنيات التأثير النفسي والروحي بدرجات أكبر من استنادها إلى حجاج عقلي أو منطقي.(١٠)

أقترح هنا أن الخطب السياسية التي تستهدف مقاومة دعوات الإطاحة بالحاكم توظف التمثيلات الإيجابية لشخص الحاكم ومنجزاته، بغرض التأثير في مشاعر الجماهير وعواطفها. هذه التمثيلات يكون غرضها حيازة تأييد شرائح الشعب للإجراءات التي يتخذها لمقاومة معارضيه، وإضفاء شرعية على استمراره في الإمساك بمقاليد السلطة، وسلب الشرعية عن المعارضين بواسطة تقنية الانتقاد المستتر hidden polemic، الذي يتحقق – بحسب باختين – حين يقوم خطاب المتكلم بشن عاصفة انتقادية على خطاب شخص آخر مغاير، من غير أن يشير إلى هذا الخطاب إشارة صريحة، أو يُعيد إنتاجه (Bakhtin، ص ص ١٩٥–١٩٧).(١١) أرى أيضاً أن مدح الذات في الخطب السياسية – بحسب ما يتجلى في خطب مبارك – ينطوي على نوع من الحوار، يقترب مما يطلق عليه ميخائيل باختين «الحوارية المستترة» hidden dialogicality (Bakhtin، ص ص ١٩٧–٢٠٠)، وهو ما يعني أن الخطب الرئاسية تتحول بذاتها إلى ساحة صراع بين خطابات السلطة القائمة وخطابات الثورة التي تبغي القضاء عليها.

ترجع أهمية ظاهرة مدح الذات في خطب مبارك إلى حقيقة أن الثورات التي تسعى إلى فسخ العلاقة بين شعب ونظام حاكم غالباً ما يكون محورها شخص الحاكم ذاته، الذي يصبح بواسطة الكناية علامة أيقونية للنظام بأكمله، ينجرح النظام بانجراحه، ويسقط بسقوطه، ويبقى ببقائه. وعادةً ما تجد شخصية الحاكم – التي تكون مرمى تصويب الثائرين – أقوى أسلحتها المضادة في خطبه السياسية. فبواسطة هذه الخطب تتم مقاومة عملية التشويه – أو التعرية – التي يتعرض لها، من خلال رسم صورة إيجابية لشخصه وتاريخه وسياساته وفترة حكمه بأكملها. وكلما ازداد الانتقاد الذي يتعرض له، زادت كثافة مدح الذات كماً ونوعاً.

مدح الذات عنصر مشترك في خطب مبارك الثلاث. مع ذلك، فإن هناك تفاوتاً دالاً في المساحة التي يشغلها مدح الذات من مجمل الخطبة، وفي نوعية الخلال التي ينسبها إلى نفسه، والنعوت التي ينفيها عنها في كل خطبة. والأكثر وضوحاً أن الوظائف البلاغية التي ينجزها مدح مبارك لنفسه على ساحة الصراع البلاغي مع بلاغة الثورة تختلف بشكل جذري في كل خطبة عن الأخرى. وتحتاج هذه الدعاوى إلى مزيد من البرهنة والتفصيل.

تمثل مدونة مدح الذات نسبة ٣١٪ من مجمل مفردات الخطب الثلاث (٨٥٤ كلمة من مجموع ٢٧٥٠ كلمة). تتكون هذه المدونة من كل الجمل التي ينسب فيها مبارك إلى نفسه خلة إيجابية (مثل: «أفنيت

عمراً دفاعاً عن أرضه وسيادته») أو ينفي عن نفسه نعتاً سلبياً (مثل: «إنني لم أكن يوماً طالب سلطة أو جاه») أو يسند إلى نفسه – على نحو حصري – القيام بفعل إيجابي يعزز صورته الإيجابية العامة (مثل: «لقد انحزْت – وسوف أظل – للفقراء من أبناء الشعب على الدوام») أو يصف شعوراً شخصياً ينطوي على إيحاءات إيجابية (مثل: «أسعد أيام حياتي يوم رفعت علم مصر فوق سيناء»). ويمكن أن نميز بين ثلاثة موضوعات كبرى يدور حولها مدح الذات في الخطب الثلاث.

الاستلاب الخطابي: تحوُّل مطالب المحتجين إلى إنجازات للنظام

الموضوع الأول هو صياغة صورة للسياسات التي يتبناها الرئيس تتطابق مع السياسات المثالية التي يحلم المحتجون بتحقيقها. لقد كانت أغلب الاحتجاجات المصرية في أيامها الأولى تدور حول مطالب اجتماعية وسياسية واقتصادية، يختزنها الشعار المفتاحي لهذه المرحلة من الثورة: «كرامة، حرية، عدالة اجتماعية». هذه المطالب تم إدماجها في خطبة ٢٨ يناير، ولكن ليس في صورة طموحات ومطالب للمحتجين، بل بوصفها منجزات شخصية للرئيس. وهكذا، فإن الخطبة تصور الرئيس على أنه هو الأقدر على معرفة تطلعات الشعب: «إنني أعي هذه التطلعات المشروعة للشعب، وأعلم جيداً قدر همومه ومعاناته، لم أنفصل عنها يوماً وأعمل من أجلها كل يوم». وهو يعمل منذ زمن لتحقيقها؛ فقد «انحزتُ للفقراء... وحرصت على ضبط سياسات الحكومة للإصلاح الاقتصادي، كي لا تمضي بأسرع مما يحتمله أبناء الشعب أو مما يزيد من معاناتهم». وسيظل يسعى إلى تحقيقها لأنَّ «اقتناعي ثابت لا يتزعزع بمواصلة الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي، من أجل مجتمع مصري حر وديمقراطي، يحتضن قيم العصر وينفتح على العالم».

هذا التماهي بين خطاب المحتجين وخطاب السلطة التي يحتجون عليها يضع أيدينا على ظاهرة بالغة الأهمية في الخطاب السياسي– وإن لم تحظ باهتمام الباحثين – يمكن الاصطلاح عليها بـ«الاستلاب الخطابي». وأعني بهذا المصطلح استحواذ الخطاب السياسي لسلطة قائمة ما على المقولات الأكثر قبولاً وشعبية وجاذبية في الخطاب المناهض لها. وهكذا، تُسْلَب من الخطاب المناهض مكامن قوته وتفرده. هذا الاستلاب عادةً ما تكون غايته تقويض شعبية الخطاب المناهض، ودفعه إما إلى تبني مقولات أخرى أقل قبولاً وشعبية، أو التمسك بالمقولات نفسها ومن ثم التضحية بخصوصيته. ولكي تؤتي عملية الاستلاب الخطابي ثمارها، يتم تقديم هذه المقولات بوصفها

نتاجاً أصيلاً للسلطة القائمة، وجزءاً لا يتجزأ من كينونتها. ومن ثمَّ، يكون هناك سكوت تام أثناء تداول هذه المقولات عن الإشارة المباشرة إلى الخطاب المناهض، مع أنه الأب الشرعي الحقيقي لها.

لقد تحولت المطالب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بواسطة الاستلاب الخطابي، من «آمال للمستقبل» تسعى قوى الثورة إلى تحقيقها، إلى «منجزات للماضي» يفخر الرئيس بإنجازها، ويَعِدُ بمواصلة العمل لأجلها. وبذلك، فإن مدح الذات بواسطة تبني الملامح الإيجابية من خطاب الخصوم، لا يسهم فقط في تشكيل صورة إيجابية للرئيس، بل يسهم أيضاً – عن طريق أسلوب الانتقاد المستتر – في سلب المحتجين مشروعية احتجاجهم ومبرراته، وفي إثارة الارتياب في دعواهم التي يتم تقديمها بوصفها تهديداً جذرياً لمستقبل الوطن الذي يشهد تحقق هذه الطموحات. وعادةً ما يتوازى ربط الرئيس بسياسات إيجابية مع الموضوع الثاني من موضوعات مدح الذات الكبرى في الخطب؛ أعني التغني بالشيم الشخصية للرئيس.

تحمل المسئولية والزهد في السلطة: التوظيف البلاغي لمدح الشيم الشخصية

يأتي على رأس هذه الشيم «تحمل المسئولية»، كما يتجلى في العبارة الختامية لخطبة ٢٨ يناير: «وأقول من جديد إنني لن أتهاون في اتخاذ أية قرارات تحفظ لكل مصري ومصرية أمنهم وأمانهم. وسوف أدافع عن أمن مصر واستقرارها وأماني شعبها. فتلك هي المسؤولية والأمانة التي أقسمت يميناً أمام الله والوطن بالمحافظة عليها». هذه العبارة نموذج مثالي للأغراض البلاغية التي ينجزها مدح الذات. فالعبارة السابقة تنجز فعلين كلاميين هما الوعيد والتهديد الموجَّهين إلى المحتجين؛ غير أنه يتم تغليف الوعيد والتهديد برداء براق من الوطنية والفضائل الشخصية. فقد قدمت خطبة ٢٨ يناير الاحتجاجات بوصفها «أعمال شغب تهدد النظام العام، وتعيق الحياة اليومية للمواطنين»، وتَعِدُ باتخاذ أية قرارات تقضي عليها، «دفاعاً عن أمن مصر واستقرارها وأماني شعبها» من ناحية، وتحملاً للمسئولية والأمانة من ناحية أخرى. وهكذا، يتحول مدح الذات إلى وسيلة بلاغية للتحريض ضد المتظاهرين من ناحية، وإضفاء شرعية على الإجراءات التي تبدو قمعية والتي يزمع القيام بها من ناحية أخرى.

واصلت خطبة الأول من فبراير التلاعب بشيمة «تحمل المسئولية» لتحقيق أغراض بلاغية أخرى. فبعد أن فقد النظام الحاكم

قوته الصلبة بانهيار الشرطة وحياد الجيش، تصاعدت الدعوات المطالبة بتخلي مبارك عن الحكم. ومن بين الاستراتيجيات التي استخدمها للرد على هذه الدعوات تقريظ سماته الشخصية، بقوله على سبيل المثال: «إنني رجل من أبناء قواتنا المسلحة وليس من طبعي خيانة الأمانة أو التخلي عن الواجب والمسؤولية». وبواسطة هذا المدح يتم إضفاء طابع أخلاقي على الحرص على التمسك بالسلطة، إذ يصبح صيانةً للأمانة، وأداءً للواجب، في حين يتم تجريم الدعوة إلى التخلي عنها بوصفها تحريضاً على الخيانة. ويؤدي الربط بين البقاء في السلطة وتحمل المسئولية العسكرية إلى تحويل التخلي عن السلطة بواسطة التضمين إلى خيانة عظمى.

وفي حين تهيمن شيمة «تحمل المسئولية» على خطبة ٢٨ يناير، يتراجع حضورها في الخطبتين الأخريين لصالح شيمة أخرى هي «الزهد في السلطة». ففي خطبة الأول من فبراير يمدح مبارك نفسه بقوله «إنني لم أكن يوماً طالب سلطة أو جاه». ويتبع ذلك بالتصريح بأنه لم يكن ينتوي الترشح في الانتخابات الرئاسية؛ متعللاً بأنه قضى «ما يكفي من العمر في خدمة مصر وشعبها». ويكرر في خطبة العاشر من فبراير المعنى نفسه تقريباً، بتفصيل أكبر قائلاً: «لم أسع يوماً لسلطة أو شعبية زائفة»، و«لقد أعلنت بعبارات لا تحتمل الجدل أو التأويل عدم ترشيحي للانتخابات الرئاسية المقبلة مكتفياً بما قدمته من عطاء للوطن لأكثر من ٦٠ عاماً في سنوات الحرب والسلام».

للوهلة الأولى، تبدو صورة الحاكم الزاهد في السلطة جزءاً من البلاغة السياسية العربية التقليدية؛ غايتها إخفاء واقع التقاتل والتكالب على حيازة السلطة، والسعي المتأجج إلى الاحتفاظ الأبدي بها – كما يليق بأنظمة استبدادية – تحت ستار كثيف من البلاغة التي تروِّج لعكس ذلك تماماً. لكن هذا التعليل لا يفسر غيابها عن خطبة ٢٨ يناير، في مقابل ذكرها بشكل موجز في خطبة الأول من فبراير، والإلحاح عليها في خطبة العاشر من فبراير. وفي الحقيقة، فإن علل هذا التحول تكمن في تغير طبيعة العلاقة بين خطاب مبارك وخطابات الثوار من ناحية، وتغير موازين القوى الصلبة على أرض الواقع من ناحية أخرى.

يبدو الإلحاح على شيمة «الزهد في السلطة» جزءاً من حوار مستتر مع الثوار، رداً على خطابهم المتضمن سيلاً من الانتقادات تركزت حول تمسك مبارك بالسلطة، ورغبته في توريثها لعائلته؛ قُدمت عادةً بشكل صريح ولاذع، عبر أنواع أدبية ساخرة بطبيعتها مثل الكاريكاتير والنكت. هذه الانتقادات أصبحت محور خطاب الثوار فيما بعد ٢٨ يناير. في حين تركز خطاب المحتجين في الفترة من ٢٥

يناير إلى ٢٨ يناير على مطالب إصلاح اجتماعي واقتصادي وسياسي. إن التغني بـ«الزهد في السلطة» هو – في حقيقة الأمر – نفي لاتهام بالولع بها. والخطاب السياسي يقوم عادةً على تجاهل الاتهامات التي يمكن تجاهلها؛ لأن الرد عليها ينطوي على توكيد لها من ناحية، ويعطيها انتشاراً أكبر من ناحية أخرى. وهذا هو ما حدث بالفعل في خطبة ٢٨ يناير. لكن هذا التجاهل لم يعُد ممكناً في ظل اتساع تداول هذه الاتهامات في المجتمع المصري، وتنامي تأثيرها في حشد شرائح جديدة ضد نظام مبارك. وهكذا، فإن اللجوء إلى حجة «الزهد في السلطة» كان أمراً لا مفر منه استجابة لضغوط خطاب الثوار، فيما يُعد نموذجاً جيداً لما يُطلق عليه رونالد كريبس وباتريك جاكسون Krebs and Jackson «الإكراه البلاغي» rhetorical coercion؛ ويقصدان به إكراه المتكلم على قول ما لا يرغب في قوله، استجابةً لضغوط يفرضها موقف التواصل. ويكون الإكراه البلاغي ناجحاً «حين تُسد على الخصم منافذ الهرب، فيُضطر إلى تبني موقف ما، كان سيرفضه بالقطع لو كان لديه منه فكاك» (ص ٣٦).

لقد استطاع الثوار تعزيز قوتهم بشكل هائل في الفترة من ٢٩ يناير حتى ١ فبراير؛ فقد كان نجاحهم في تدشين مليونيتهم الأولى، وتنامي شعور المجتمع بالأمان النسبي بفعل حماية اللجان الشعبية، وحياد القوات المسلحة، حافزاً على تزايد نطاق توزيع خطابهم وتبنيه. وهكذا، وُضِع نظام مبارك في موقف بالغ الصعوبة؛ إذ لم يعد من الممكن تجاهلهم أو استلاب مقولاتهم. ولم يكن هناك مفر من الخضوع للقسر البلاغي، وتقديم تنازلات جديدة، تمثلت بشكل أساسي في جملة خبرية تحتمل معنى الوعد بالتخلي عن السلطة «في المستقبل»؛ هي عدم «انتواء» الترشح للرئاسة لفترة رئاسية سابعة. ولكي لا يُفهم أن هذا الوعد المحتمل هو عرض تفاوضي مع الثوار، استعان المتكلم بأسطورة «الحاكم الزاهد في السلطة» لعزل الوعد عن سياق الثورة، وردِّه إلى لحظة تاريخية سابقة عليها؛ في محاولة لإخفاء معالم الإكراه والإجبار البلاغي.

غالباً ما يلجأ الحاكم إلى بلاغة الزهد في السلطة في ثلاثة سياقات رئيسة: الأول سياق السعي الحثيث وراءها، حيث يتم إخفاء هذا السعي بالتمنع في قبولها والإلحاح على سلبياتها.(١٢) والثاني سياق احتمال فقدها، حيث يتم الالتفاف على فقدها بالمبادرة بإظهار التخلي عنها.(١٣) والثالث سياق احتمال الإجبار على التخلي عنها؛ حيث يتم الالتفاف على الإجبار بالمبادرة إلى إظهار عدم الرغبة فيها. ومن المؤكد أن هذه البلاغة شديدة التأثير في الشعوب ذات الذاكرة الضعيفة التي تصدق معسول الكلام، وتتجاهل خبراتها الماضية.

المزج بين التاريخ الشخصي والوطني: سرد مآثر الرئيس

الموضوع الثالث من الموضوعات الكبرى لمدح الذات هو سرد مآثر التاريخ الشخصي للرئيس. وقد حفلت الخطب الثلاث بعبارات طويلة يعدد فيها ما قدمه من خدمات جليلة للوطن، ويمزج فيها بين تاريخه الشخصي وتاريخ الوطن. بدأت هذه السرديات في خطبة ٢٨ يناير بعبارة موجزة سوف يتم تفصيلها والإسهاب فيها في الخطبتين التاليتين؛ هي: «إنني لا أتحدث إليكم اليوم كرئيس للجمهورية فحسب، وإنما كمصري، شاءت الأقدار أن يتحمل مسئولية هذا الوطن، وأمضى حياته من أجله حرباً وسلاماً». تستخدم العبارة تقنية التجريد البلاغي بواسطة خلق كينونة نصية موازية لأنا المتكلم ومتوحدة معها، وهكذا تتكون هويتان للرئيس؛ هوية شخصية وهوية رسمية. هذا التجريد عادةً ما يُنجز وظائف تدعيم الروابط الحميمة بين الجمهور والمتكلم (الذي يصبح مجرد مواطن مصري، تحمَّل المسئولية بإرادة إلهية قدرية). يتم تدعيم التجريد في الجملة نفسها بالالتفات من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، بما يتيح إمكان السرد بضمير الغائب، فيكتسب السارد درجة من المصداقية التي يحوزها عادةً مَن يصف مِن موقع الشاهد، ويقيم مسافة نصية بين ذات الموصوف (هو) وذات المتكلم (أنا)؛ بما يقلل من خطورة اتهامه بالتفاخر. وقد مثَّلت خطبة الأول من فبراير ذروة التوظيف البلاغي لسرد المآثر الشخصية؛ بما يجعلها جديرة بتحليلٍ خاص.

الاحتشاد البلاغي: فن تعطيل الملكة النقدية

في صباح الأربعاء، الأول من فبراير ٢٠١١، كانت مصر تعيش لحظة انقسام مفجعة. كان نهار الثلاثاء قد شهد أول مليونية للمحتجين؛ لكن زهو المليونية وثقة المحتجين كانا على وشك التلاشي أمام عتاد اللغة السياسية. فقد عصفت خطبة مبارك التي ألقاها في مساء اليوم نفسه بشعبية المحتجين، وقلبت موازين القوى كلية بانحياز أغلب المصريين غير المشاركين في الاحتجاجات لسيناريو بقاء مبارك في السلطة.(١٤) وقد كان لمناورة سرد المآثر الشخصية في إحداث هذا التأثير دور كبير.

أفردت خطبة الأول من فبراير فقرتين كاملتين لسرد المآثر الشخصية، تستغرقان ما يقرب من ربع حجمها (١٨٥ كلمة من مجموع ٧٢٥)، كان لهما تأثير هائل في مسار الصراع بين خطاب الثوار

وخطاب السلطة. وقد تحولت الفقرة الثانية تحديداً إلى أيقونة لخطبه الثلاث؛ وهي، من ثمَّ، تحتاج إلى وقفة خاصة.

..... إن حسني مبارك الذي يتحدث إليكم اليوم .. يعتز بما قضاه من سنين طويلة .. في خدمة مصر وشعبها. إن هذا الوطن .. العزيز .. هو وطني .. مثلما هو وطن كل مصري ومصرية .. فيه عشتُ .. وحاربتُ من أجلهْ .. ودافعتُ عن أرضهْ .. وسيادته ومصالحهْ .. وعلى أرضه أموت .. وسيحكم التاريخ علي وعلى غيري .. بما لنا .. أو علينا.(١٥)

تحتشد هذه العبارة بأساليب بلاغية عديدة يأتي على رأسها التجريد ووضع المضمر موضع المظهر (حسني مبارك بدلاً من أنا)، والالتفات من ضمير الغائب في «يتحدث» و«يعتز»، إلى ضمير المتكلم في «وطني»، «عشتُ»، «حاربتُ»، «دافعتُ». إضافةً إلى فخاخ التصفيق البلاغية claptraps التي تستخدم عادةً لاصطياد استحسان الجماهير الفعلية أو المفترضة، وهو ما تعبر عنه الجماهير الفعلية في شكل استجابة صوتية حركية هي التصفيق (Atkinson، ص ص ٥٣–٧٥). فهناك قائمتان ثلاثيتا الأجزاء، هما، أولاً، «فيه»: (١) «عشتُ»، (٢) «حاربتُ»، (٣) «دافعتُ» وثانياً، «دافعت عن»: (١) «أرضه»، (٢) «سيادته»، (٣) «مصالحه». وثلاث ثنائيات متقابلة – تصنع توازيات دلالية ممتدة – هي: «فيه عشت.. وعلى أرضه أموت»، و«سيحكم التاريخ عليَّ وعلى غيري»، و«بما لنا أو علينا».(١٦)

كذلك تحفل العبارة ذات الخمسين كلمة بثلاثة أساليب إيقاعية مهدهدة للنفوس؛ الأول هو السجع في «عشتُ»، «أموتُ»، و«عليَّ»، «غيري»، و«لنا»، «علينا» و«سيادته»، «مصالحهِ». والثاني هو التوازي الصوتي التركيبي المعضّد بالسجع أيضاً في «حاربتُ من أجلِهْ»، «دافعتُ عن أرضِهْ». إضافةً إلى أن هاتين الجملتين المتتاليتين – مع حذف الواو العاطفة – يكوّنان بيتاً شعرياً من مجزوء البسيط (مستفعلن فعلن، مستفعلن فعلن). والثالث هو حسن التقسيم في عبارة «عليَّ وعلى غيري» و«بما لنا أو علينا». كما تنطوي الفقرة على ظاهرة غير شائعة في تراكيب لغة الحياة اليومية هي تقديم المفعول به على الفعل والفاعل، في مثل: «فيه عشتُ، وعلى أرضه أموتُ»؛ التي تضع الوطن في صدارة النص، وفعل الحياة والموت في خلفيته، وفي الوقت ذاته تقوم بإنتاج إيقاع تكراري بواسطة السجع، حرص مبارك على الاتكاء عليه في أدائه التعبيري المتقن للعبارة.

إضافةً إلى ذلك، فقد أسهم الأداء الصوتي للعبارة في إبراز إيقاعها الكثيف؛ حيث قُسِّمت أثناء نطقها إلى ستة عشر جزءاً، تفصل بينها فترات صمت قصيرة (بمتوسط ثانية واحدة). وكما يمكن أن نتوقع، فقد توافقت فترات الصمت مع النهايات الصوتية المتشابهة (المسجوعة)، وفي الفواصل بين الأجزاء التي فيها توازٍ صوتي أو تركيبي. في حين يرتفع النبر في التعبيرات التي يوجد فيها توازٍ صوتي دلالي («عليَّ، وعلى غيري»، و«بما لنا، أو علينا»).

هذا الاحتشاد البلاغي، الذي يتأسس على مجموعة من التوازيات الصوتية والتركيبية والدلالية، يغيِّر من الطبيعة النوعية لهذه العبارة؛ فالكثافة الإيقاعية والبديعية التي تصنعها هذه التوازيات تؤدي إلى هيمنة الوظيفة الشعرية عليها، وبذلك ينصرف اهتمام المخاطَب عن البحث في علاقة العبارة بالواقع – كما هو الحال في الوظيفة المرجعية أو المعرفية – أو الإحاطة بفحواها – كما هو الحال في الوظيفة الإفهامية التي يُفترض هيمنتها على الخطاب السياسي(١٧) – إلى الاستغراق في إيقاعاتها وزخارفها. ويترتب على ذلك، تعطيل التلقي النقدي الذي يفنِّد المحتوى، وشحذ التلقي الجمالي الذي تجتذبه البراعة الإنشائية. وربما تبرر هذه الغاية احتشاد العبارة بفخاخ التصفيق البلاغية التي تصطاد الاستحسان الجماهيري للصياغة، وتُحوله إلى قبول واقتناع بالمعنى.

إن قدراً من فعالية هذه العبارة – بالإضافة إلى صياغتها البلاغية – يرجع إلى الطابع الحواري الذي يسمها؛ فالعبارة تستجيب على نحو مستتر لخطاب الثوار في ميدان التحرير، وتفنِّده. وبحسب ميخائيل باختين، تتحقق هذه الحوارية المستترة حين يكون المتحاور معه مخفياً، وكلماته غير موجودة، لكن ما تتركه هذه الكلمات من أثر عميق يكون شديد التأثير في كل تجليات خطاب المتكلم، فكل كلمة ينطق بها تردُّ على المتحاور معه المخفي، وتتفاعل معه، وتشير إلى شيء خارجها، يتجاوز حدودها؛ هو كلمات المتحاور معه المخفي، التي لم يُنطَق بها مطلقاً (Bakhtin، ص ١٩٨)؛ تماماً كما هو الحال – على سبيل المثال – حين يكون لدينا كلام طرف واحد في محادثة تليفونية. وهكذا، فإن الإلحاح على التشبث بالبقاء في مصر هو رد مباشر على هتافات الثوار الآمرة بالرحيل، بينما يكون التغني بما قدمه مبارك لمصر والاحتكام إلى التاريخ تفنيداً مباشراً للافتاتهم التي تُشَيْطِنُ شخصه وتُسَوِّدُ فترة حكمه.

هيمنة الوظيفة التأثيرية: الأنا مركزاً للخطاب

لقد أثَّرت المساحة الكبيرة لمدح مبارك لنفسه في إسناد الأفعال في الخطب الثلاث. فقد أُسنِدت معظم الجمل الفعلية في الخطب إلى ضمير المتكلم المفرد (أنا، تاء المتكلم)، في مقابل استخدام أقل لضمير الجمع المتكلم (نحن، نا الفاعلين)، واستخدام بالغ المحدودية لضمير الجمع المخاطب (كم). كما يظهر من الإحصاء الآتي لضمائر التكلم والخطاب في الخطب الثلاث:

الخطبة/الضمير	المفرد المتكلم	الجمع المتكلم	المخاطَب	المجموع
٢٨ يناير	٣٧	٣٤	٥	٧٦
١ فبراير	٤٨	١٢	٣	٦٣
١٠ فبراير	٨٤	٤٣	١٦	١٤٣
المجموع	١٦٩	٨٩	٢٤	٢٨٢

شكل ١: ضمائر التكلم والخطاب في الخطب

يكشف الحصر السابق عن هيمنة ضمائر المفرد المتكلم على مدونة الخطب؛ إذ بلغ عددها ضعف ضمائر المتكلم الجمع، وما يقرب من سبعة أضعاف ضمائر المخاطَب. ويبدو هذا كاشفاً عن نزعة تمركز الخطب حول ذات المتكلم، وهو ما قد يوازي تمركز الدولة حول ذات الحاكم في الأنظمة المستبدة، وهو تمركز يجد أيقونته الجلية في تعبير «أنا الدولة»؛ حيث تشير «أنا» إلى الحاكم.[١٨] وفي الحقيقة، فإن معظم الأفعال التي عادةً ما تُنسب إلى مؤسسة الحكم بأكملها (مثل الإصلاح الاقتصادي وضمان الحريات، إلخ.) تم إسنادها إلى ذات الرئيس المفردة. في حين اقتصرت إحالة «نحن»، في معظم مرات ورودها على «نحن» العامة التي تدمج الشعب مع ذات الرئيس، كما في قوله في خطبة ٢٨ يناير: «لقد اجتزنا معاً من قبل أوقاتاً صعبة تغلبنا عليها عندما واجهناها كأمة واحدة وشعب واحد، وعندما عرفنا طريقنا ووجهتنا وحددنا ما نسعى إليه من أهداف». وعادةً ما تكون غاية «نحن»، هنا، خلق هوية جمعية توضع في مواجهة «آخر» غائب، قد يكون «الفوضى» أو «الانتكاسة» أو مَن تسبب فيهما؛ أيْ المحتجين.

يضعنا الجدول السابق أمام ملاحظة أخرى. فقد شهدت خطبة الأول من فبراير أكبر تكرار لضمائر المتكلم المفرد في مقابل ضمائر المتكلم الجمع (بنسبة ٤:١، وهو ضعف المعدل العام في الخطب

الثلاث). لقد كانت هذه الخطبة أكثر الخطب تأثيراً في عموم المصريين من غير المنخرطين بقوة في الاحتجاجات. وربما يرجع ذلك – إضافةً إلى براعة استغلال حجج تحظى بقبول جماهيري تنتمي إلى البلاغة الأبوية والذخيرة الخطابية القروية والأخلاقيات الأسرية(١٩) – إلى الدور الذي أدته ضمائر المفرد المتكلم في خلق نمط مغاير من التخاطب بين مبارك والمصريين؛ يُموضِع فيه ذاته – بوصفه إنساناً عادياً – مباشرةً في مواجهة المجتمع، متحدثاً بلهجة حميمة أشبه بالبوح المتألم. لقد كانت الخطبة لحظة استثنائية في تاريخ طويل من التواصل السياسي بين المصريين ورئيسهم؛ رأوه فيها للمرة الأولى عارياً – بشكل مؤقت – عن السلطة، يستعطفهم بأبوة وكبرياء.

لقد أسهم توزيع الضمائر في النص في تعزيز حالة البوح والحميمية المرتبطة بمدح الذات. فقد تضمنت فقرات مدح الذات في الخطبة ٢٥ ضمير متكلم مفرد من مجموع ٤٨ ضميراً. تبدأ هذه الفقرات من قوله «إنني لم أكن يوماً طالب سلطة» إلى قوله «ويحترم الدستور»، ومن قوله «إن حسني مبارك» إلى قوله «بما لنا أو علينا». مجموع مفردات هذه الفقرات ١٨٥ من إجمالي ٧٢٥ كلمة، أيْ ما يقرب من ربع مجموع كلمات الخطبة، بما يعني أن نسبة استخدام ضمائر المفرد المتكلم في فقرات مدح الذات تزيد ضعفين ونصف عن نسبة استخدامها في بقية الخطبة؛ بما يعزز من وضع الذات الفردية لمبارك في مواجهة الجماهير.

إن هيمنة ضمير «الأنا» على مجمل الخطب الثلاث مؤشر على هيمنة الوظيفة التأثيرية/الانفعالية عليها، وفقاً لتصور ياكبسون للعلاقة بين الضمائر المهيمنة على النصوص والوظائف التي تقوم بها. وتهدف الوظيفة الانفعالية وفقاً لهذا التصور إلى «التعبير بصفة مباشرة عن موقف المتكلم تجاه ما يتحدث عنه. وهي تنزع إلى تقديم انطباع عن انفعال معيَّن صادق أو خادع» (ياكبسون، ص ٢٨). غرض هذا الانطباع هو إثارة انفعالات متلقي الرسالة كي يتبنى موقف المتكلم، وينفعل بالموضوع نفس انفعاله؛ ومن هنا يجيء تسميتها بالوظيفة الانفعالية أو الوجدانية.

من الجلي أن خطبة الأول من فبراير التي تهيمن عليها الوظيفة التأثيرية/الانفعالية بشكل أكبر من الخطبتين الأخريين قد حققت هاتين الوظيفتين. فقد حصد مدح مبارك لذاته – بشحنته العاطفية، وتوجهه نحو مخاطبة نفوس المصريين وانفعالاتهم – تعاطف كثير من المصريين، حتى إن بعض مَن كانوا على يسار النظام انفعلوا بالخطبة إلى حد البكاء.(٢٠)

لكن كما أن المرء لا يضع رجله في النهر مرتين؛ فإن الوظيفة الانفعالية/التأثيرية لا تُحقِّق أغراضها في الجمهور نفسه حول

الموضوع نفسه مرتين. فحين استخدم مبارك المناورة الخطابية نفسها في خطبة العاشر من فبراير، بالآليات والوسائل البلاغية نفسها، وأمام الجمهور نفسه – تقريباً – لم يحصد إلا مشاعر الغضب والاستفزاز. فكيف يمكن تفسير ذلك؟

تكاد تكون خطبة العاشر من فبراير قصيدة في مدح الذات، كرّس فيها مبارك عبارات طويلة للحديث عن «إنجازاته» و«تضحياته» و«مناقبه الشخصية». وذلك في وقت كان قد هيمن فيه خطاب الثوار الذي يربط بين شخص الرئيس وعمليات نهب منظم لثروات البلاد، وتدمير ممنهج لقدراته، وعبث دءوب بمقدراته. أحدث هذا الخطاب تغييراً جذرياً في صورة مبارك العامة لدى أغلب المصريين. وإذا وضعنا في الحسبان الظاهرة المعروفة بـ«أثر الكيد المرتد على صاحبه» boomerang effect، التي تشير إلى أن اللغة المشحونة أو العاطفية قد تؤدي في حال استخدامها في غير موضعها أو بشكل كثيف إلى تنفير المستمعين أو القراء (De Rosa، ص ص ١٦٢–١٧٨)، فإنه من الطبيعي أن تؤدي مثل هذه الخطبة التي يتغنى فيها الرئيس بذاته – في هذه الظروف – إلى نتائج عكسية بشكل حاسم، تتمثل في شحن غضب الجماهير وتعظيم حالة استفزازهم. وفي مقابل حالة الصمت التي شملت جمهور ميدان التحرير أثناء سماع خطبة الأول من فبراير، كانت هناك استجابات آنية من الجمهور أثناء إلقاء خطبة العاشر من فبراير. وكما يمكن أن نتوقع، فإن هذه الاستجابات كانت رافضة لما ورد في الخطبة، لكن المثير هو مراقبة توقيت بدئها وتصاعدها.(٢١)

على مدار سبع دقائق من الخطبة، كان الجمهور البارز على الشاشة يستمع في حالة صمت. وما إن انتهى مبارك من عبارة «على طريق الانتقال السلمي للسلطة من الآن وحتى سبتمبر المقبل» – التي توحي ببقائه في السلطة حتى ذلك الوقت – حتى بدأ الجمهور في المقاطعة والهتاف لثوانٍ معدودات، ثم عاد إلى الصمت من جديد. ومع استمراره في التحدث عن التعديلات الدستورية انطلقت هتافات متقطعة غائمة، وارتفعت كثير من الأحذية إلى السماء. ثمَّ وضحتْ وعلتْ هتافات «هُوَّ يمشي .. مش هانمشي»، و«ارحل» حين قال «إن اللحظة الراهنة ليست متعلقة بشخصي، ليست متعلقة بحسني مبارك»، وسرعان ما عادت متقطعة وغائمة. لكن ما إن بدأ مبارك في قراءة أطول فقرات مدح الذات في خطبه جميعاً، التي تبدأ بقوله «لقد كنت شاباً مثل شباب مصر الآن عندما تعلمت شرف العسكرية المصرية»، حتى اشتعل الميدان بهتاف «ارحل»، وغطى على صوت البث الداخلي للخطبة في الميدان. واستمر الهتاف متحولاً إلى «يسقط يسقط حسني مبارك»، ثم «هو يمشي .. مش هنمشي». وعلى مدار أربع دقائق

وخمسين ثانية – الوقت الذي استغرقته قراءة الفقرة – ظلت الهتافات الجماعية حاشدةً، ولم تتوقف حتى انتهاء الخطبة كلها.

تعكس الهتافات والإشارات الرمزية المتحدية لخطاب السلطة، والمستهزئة به، وصول جمهور ميدان التحرير إلى مرحلة «تشبع» من خطاب مدح الذات؛ فلم يعد قادراً على سماع المزيد.[٢٢] ويبدو هذا طبيعياً إذا نظرنا إلى الوظيفة الانفعالية الأساسية لهذا الخطاب. فعادةً ما يكون تأثير الابتزاز العاطفي والانفعالي قصير المدى وغير قابل للتكرار؛ لأنه لا يؤثر في الاتجاهات الراسخة، وهذا سر عدم تأثيره في القطاع الأكبر من المحتجين. كما أن انفعالات الشفقة والتعاطف ترتخي وتهدأ ما إن ينتقل المرء من التلقي الانفعالي الآني إلى التلقي النقدي؛ حيث يتاح لقدراته العقلية التي تُفنِّد الكلام وتنتقده وتقيسه على الواقع وتستحضر الخبرة التاريخية أن تغربل ما انفعلت به للوهلة الأولى، فتقبل منه ما تقبل، وترفض ما ترفض. لكن هذه الانفعالات تزول تماماً حين يسقط عن الشخص موضوع الشفقة والتعاطف رداء الضحية، لتبرز من تحته مخالب الصياد؛ وهو عين ما حدث إثر الإرهاب المادي الذي تعرض له معتصمو ميدان التحرير، فيما بات يُعرف بأحداث موقعة الجمل. هذا الإرهاب المادي لم يكن أكثر خطورة من الإرهاب الخطابي الذي شنته الخطب الثلاث على كل المصريين؛ وبخاصة خطبة ٢٨ يناير. هذا النوع من الإرهاب الخطابي أنجز بشكل أساسي بواسطة مناورات تشكيل الماضي والمستقبل، كما سأبيِّن بالتفصيل فيما يلي.

فردوس الماضي: التاريخ وقوداً للثورة

عادةً ما يجعل الراغبون في التغيير من تقبيح ماضي النظام القائم فتيلاً لإشعال احتجاجاتهم. وهكذا، تكون ساحة الخطاب نهباً لصراع ضارٍ بين السلطة والثائرين عليها؛ كلٌّ منهم يبغي لسردياته عن الماضي القريب والبعيد الرواج والقبول. ومن الطبيعي أن تجعل خطابات الثورة من ماضي السلطة القائمة جحيماً مسيطراً، ومن المستقبل – إن هي نجحت – فردوساً موعوداً. أما السلطة القائمة فتُخلِّد الماضي الذي صنعته، وترسم صوراً رماديةً – وأحياناً سوداء حالكة السواد – لمستقبل يخلو منها، وآخر مزهراً مزدهراً بمعيتها إن هي أفلحتْ في البقاء. وبذلك تغدو تمثيلات الماضي والمستقبل أسلحة فعالة في تلك الحروب البلاغية التي تكون غايتها – في الحقيقة – هي اللحظة والآن.

تمارس سرديات الماضي وظائف بلاغية مهمة مثل إضفاء (أو نزع) الشرعية على القوى المتنازعة، وتبرير سلاسل الأفعال التي يقوم

بها كلٌّ منها واستقطاب القوى المحايدة، وحشد القوى المؤيدة، وزعزعة مواقف القوى المناهضة. إضافةً إلى ذلك، كان تمثيل «الماضي التليد» في خطب مبارك أداة من أدوات «مدح الذات»، وغاية من غاياته في الوقت ذاته. فقد كان ما يمكن تسميته «سرديات الإنجازات» العمود الفقري لمدح مبارك لنفسه. وقد لعبت هذه السرديات دوراً مهماً في دعم محاولاته الاحتفاظ بالسلطة، وفي مقاومة ما يمكن تسميته «سرديات المثالب» التي أنتجها خطاب الثوار، وأخذت غالباً شكل هتافات ولافتات ونكت وقصائد تقدح في شخصيته ومصداقيته وذمته المالية.(٢٣) كما كانت رأس الحربة في محاولة كسب تعاطف الشرائح المحايدة من المصريين، وتحريضهم ضد المحتجين، الذين أصبحوا – في إطار محاولة تحويل منظور المصريين للأحداث من السياسة إلى الأخلاق – «ناكرين للجميل». وفي إطار هذا المنظور الأخلاقي فحسب، يمكن أن نفهم عبارة مبارك المتحسرة في خطبته الأخيرة: «يحز في نفسي ما ألاقيه اليوم من بعض بني وطني».

لقد ذكر أورويل Orwell في روايته الشهيرة **١٩٨٤** أن «من يسيطر على الماضي، يسيطر على المستقبل، ومن يسيطر على الحاضر يسيطر على الماضي» (ص ٣٢). وإذا كانت الثورة هي فعل تنازع بين مَن يبغون السيطرة على تمثيلات الماضي لأجل التحكم في الحاضر، فإن الثورة أيضاً ساحة لتنازع آخر على سيناريوهات المستقبل؛ لأجل التحكم في الماضي والحاضر والمستقبل. ففي معادلة الاستقرار والثورة لا يقل الصراع على احتكار سيناريوهات المستقبل الفاعلة أهمية عن الصراع على تأويلات الماضي المؤثرة.

رعب المجهول: آليات التلاعب بالمستقبل

الثورة رهان عنيف على المستقبل. وفي ساحة الحروب البلاغية بين السلطة القائمة والقوى الثورية، تتحول سيناريوهات المستقبل إلى آلة فتك فعالة. فسيناريوهات المجهول والفوضى والانزلاق والانتكاس كانت رأس الحربة في محاولة تفتيت إرادة التغيير؛ وبخاصة في خطبة ٢٨ يناير. إذْ كانت استراتيجية التخويف مما يحمله القادم المجهول الحجة الإقناعية الأساسية لوقف الاحتجاجات. لذا، ليس من المستغرب أن كلمة «مستقبل» كانت أكثر المفردات المعجمية تكراراً في الخطبة؛ حيث تكررت ٨ مرات، بمعدل تكرار أربعة أضعاف خطبتي الأول والعاشر من فبراير؛ حيث لم ترد في كل منهما سوى مرتين فحسب. لا تتبدَّى الأهمية الحاسمة لمفهوم المستقبل في الخطب في معدل تكرار

الكلمة المعجمية فحسب، بل تتجلى كذلك في أبرز الظواهر البنيوية للخطب الثلاث؛ أعني كونها تقوم جميعاً على ثنائية تقابلية ذات تنويعات مختلفة، يمثِّل المستقبل أبرز طرفيها؛ هي ثنائية استمرار النظام القائم ومطالب التغيير الجذري. وسوف أحاجج فيما يأتي بأن إنتاج سيناريوهات المستقبل يتم بواسطة تجسيد التقابل بين هذه الثنائيات وتشخيصها، ومن ثمَّ يتحول المستقبل إلى كائنات مادية فاعلة في إطار سيناريو استعاري متكامل. كما أحاجج بأن تجسيد المستقبل هدفه إنجاز أغراض بلاغية محددة، ذات صلة وثيقة بتغيير اتجاهات المصريين نحو الرغبة في التغيير.[٢٤]

استمرار النظام	**التغيير (الثورة)**[٢٥]
الاستقرار	الفوضى
المستقبل	المجهول
الأمن	الخوف/الانزعاج/القلق/الهواجس
الإنجازات	الانتكاس
المكتسبات	الخراب
الحرية	الفوضى
البناء	الهدم
الإصلاح	العنف
الاستقرار	الديمقراطية
مصالح الوطن	الأجندات الخاصة

شكل ٢: تنويعات ثنائية استمرار النظام/التغيير في الخطب

تتناثر هذه الثنائيات المتضادة على مدار الخطب الثلاث، غير أن خطبة ٢٨ يناير تحصد غالبيتها. توجد هذه الثنائيات إما في شكل تضاد صريح كما في ثنائية الفوضى والاستقرار («إن أحداث الأيام القليلة الماضية تفرض علينا جميعاً شعباً وقيادة الاختيار ما بين الفوضى والاستقرار») أو في شكل تقابل ضمني كما في ثنائية الديمقراطية والاستقرار («لا ديمقراطية حققتْ ولا استقراراً حفظتْ»).

تكشف قائمة الثنائيات في شكل ٢ عن أن الخطب تُلصق بالثورة سلسلة من الصفات السلبية، وذلك من خلال وسيلتين. الأولى، تحميل الثورة مسئولية الأحداث التي صاحبتها – مثل الانفلات الأمني وما أحدثه من رعب وترويع– والثانية، الربط بين الثورة وسيناريوهات مستقبلية مخيفة.

وقد تم دمج وقائع الحاضر المروِّعة مع سيناريو المستقبل من خلال إظهار أن هذه الوقائع هي تباشير المستقبل الذي تبشر به الثورة.

جُسِّدت هذه الثنائيات بواسطة استعارات المرض – مثل الانتكاس – التي يتم فيها تصوير منجزات النظام بوصفها «تعافياً من مرض»، في حين يصوَّر المستقبل بوصفه انتكاسة؛ أيْ «معاودة المرض للمريض بعد تعافيه منه». كما تم تجسيد مستقبل التغيير بواسطة مفهوم استعاري هو «السقوط في هاوية». قد يتجلى هذا السقوط في انزلاق نحو «الفوضى»؛ ومن ثمَّ «علينا أن نحاذر مما يحيط بنا من أمثلة عديدة انزلقت بالشعوب إلى الفوضى والانتكاس». أو يتجلى في تخوُّف المصريين من الانجراف «إلى المزيد من العنف والفوضى والتدمير والتخريب». ومسئولية الرئيس هي الحيلولة دون هذا السقوط/الانزلاق/الانجراف «بالحفاظ على أمن مصر واستقرارها وبعدم الانجراف بها وبشعبها لمنزلقات خطيرة». أما المستقبل ذاته فقد تم تشييئه في صورة «ممتلكات نفيسة» أو مكتسبات، تهدد الثورة بوضعها في مهب ريح التغيير. في حين يكون الحفاظ عليها «رهناً بالحفاظ على مصر مستقرة وآمنة، وطناً لشعب متحضر وعريق لا يضع مكتسباته وآماله للمستقبل في مهب الريح».

شخَّصت الخطب المستقبل/الغد في صورة إنسان شرير يجلب معه الانزعاج والقلق والهواجس والخوف «لهم ولذويهم وعائلاتهم ومستقبل ومصير بلدهم». كما تمَّ تجسيد الخوف من المستقبل في صورة وحش مرعب؛ فقد ألقت «أحداث اليوم والأيام القليلة الماضية في قلوب الأغلبية الكاسحة من أبناء الشعب الخوف على مصر ومستقبلها». ومسئولية الرئيس هي محاربة هذا الوحش؛ وهو يتصدى للمسئولية ويَعِدُ بأن: «لن أسمح بذلك أبداً، لن أسمح لهذا الخوف أن يستحوذ على مواطنينا، ولهذا التحسب أن يلقي بظلاله على مصيرنا ومستقبلنا».

أُدمجت صورة الوحش المرعب في إطار سيناريو استعاري يتم فيه تجسيد رؤى المستقبل وتشخيص القوى الفاعلة فيه، يمكن تلخيصه في الآتي: هناك قوى شريرة داخل المجتمع وخارجه، لا يتم تسميتها بل وصفها بصفات شريرة، تتحرك في الظلام، بهدف سلب المصريين نجاحاتهم، وتلقي بمستقبل المصريين في مهب الريح. هذه القوى الخفية بلا ضمير، ولا عقل، ولا يحركها سوى أغراض ومطامع شخصية شريرة، ولها قدرة على التغرير بشباب المجتمع واستغلاله لصالحها؛ فقد «تحولت تلك التظاهرات من مظهر راق ومتحضر لممارسة حرية الرأي والتعبير إلى مواجهات مؤسفة تحركها وتهيمن عليها قوى سياسية سَعَتْ إلى التصعيد وصب الزيت على النار». وقد

نجحت هذه القوى الشريرة في إشاعة الفوضى والخوف إلى حد لا بد معه من إنقاذ الوطن من السقوط في الهاوية؛ فقد «استهدفت أمن الوطن واستقراره بأعمال إثارة وتحريض وسلب ونهب وإشعال للحرائق وقطع للطرقات واعتداء على مرافق الدولة والممتلكات العامة والخاصة واقتحام لبعض البعثات الدبلوماسية على أرض مصر». وهنا، يأتي دور المخلِّص المنقذ (الرئيس نفسه) الذي يستطيع القضاء على قوى الشر المخيفة، مستعيناً بخبراته السابقة، فقد «اجتزنا معاً من قبل أوقاتاً صعبة تغلبنا عليها عندما واجهناها كأمة واحدة وشعب واحد»، ويمتلك الصلاحيات اللازمة لتحقيق ذلك «فتلك هي المسؤولية والأمانة التي أقسمت يميناً أمام الله والوطن بالمحافظة عليها». وليس غاية المخلِّص المنقذ الحفاظ على كرسيه؛ فقد «أمضى حياته من أجله [الوطن] حرباً وسلاماً»، بل القيام بدوره البطولي في إنقاذ الوطن، الذي «أفنيت عمراً دفاعاً عن أرضه وسيادته».

يتسق السيناريو السابق مع الذخيرة الخِطابية الكامنة لدى المواطن الكوني، إن صح التعبير. فأفلام «المنقذ المخلِّص»، الذي يواجه قوى الشر والظلام ويدمرها بلا رحمة، تتكرر بآلاف المعالجات ليل نهار. والسيناريو نفسه يتماثل مع السرد الديني في مجمله، ومع بعض السير الشعبية والأحداث التاريخية، وهو السيناريو ذاته الذي تلجأ إليه بعض الدول الاستعمارية بوصفه غطاءً للتدخل العسكري في الدول الأخرى، كما حدث في العراق، بحسب ما يشرح عالم اللغويات المعرفية جورج لاكوف في دراسته لدور الاستعارة في تبرير الإدارة الأمريكية لحربَيْها على العراق.

من الطبيعي أن تكون الاستعارات التشخيصية والتجسيدية هي الأدوات البلاغية الأساسية لتمثيل المستقبل. فالمستقبل مفهوم معنوي، مجرد، غائم، نسبي، ولا يمكن الإحالة إليه – وبخاصة للجمهور العام – إلا باستحضار خبرات حسية، مادية، محددة بوضوح، وتوافقية، مثل خبرات السقوط في هاوية أو فقد الأشياء الثمينة. ويؤدي هذا التشخيص والتجسيد السلبي لمستقبل التغيير في خطب مبارك إلى فتح الباب أمام تأويلات جموح، تُذكي مخاوف شرسة من المجهول. تلك المخاوف من المستقبل – التي تتلاقى مع مخاوف ملموسة بسبب إطلاق المجرمين في الشوارع، وخطاب الرعب الذي صاحبه – كان من المأمول أن تقوم بالدور الأساسي في تثبيط همم المحتجين، وتحويل تعاطف غير المحتجين مع التغيير إلى رفض وعداء. لكن خطاب المحتجين استطاع تعليق جرَس مخاوف المستقبل في رقبة النظام الحاكم، بعد أن امتلأت ساحة الكلام العام بأخبار حول مسئولية النظام نفسه عن تدبير حملة الرعب وشنها على

المصريين. وبذلك ارتد كيد مناورة سيناريو المستقبل المرعب من قلب الثورة إلى نحر النظام.

خاتمة:
الحروب البلاغية بين مكر الثعالب وجدوى الإنصات إلى الكلمات

لقد تتبعت هذه المقالة أهم المناورات التي استخدمها خطاب السلطة في ساحة الثورة المصرية. وللإحاطة بطبيعة هذه المناورات وتحليل آليات عملها درست ظواهر غير خطابية مثل تكنولوجيا إنتاج الخطب، والسيطرة على سياق تلقيها، وأخرى معجمية وتركيبية مثل المستوى اللغوي والتراكيب التراثية، وإيقاعية مثل التوازي النحوي والسجع وحسن التقسيم، ومضمونية مثل موضوعات مدح الذات، ومفهومية مثل تمثيلات الماضي وسيناريوهات المستقبل.

لقد كانت هذه المناورات البارعة جزءاً من حرب بلاغية شعواء بين خطاب السلطة وخطاب الثورة. في ساحة تلك الحرب البلاغية تبادل الطرفان الضربات فيما يشبه لعبة تنس طاولة، كرتها الكلام. فالشعوب الثائرة تطلق مظاهرات الاحتجاج وهتافاته ولافتاته وشعاراته وأيقوناته وصوره في مواجهة النظام القائم الذي يرد بخطبة رئاسية يُحكم فيها سيطرته على سياق إنتاج الخطاب وتداوله، ويناور المحتجين ببراعةِ تمثيلات الماضي وإرهاب سيناريوهات المستقبل؛ لكي يُجهِض ثورتهم البازغة. لكن رويداً رويداً تتحرر نفوس المحتجين من الخوف، وأجسادهم من الخور، وعقولهم من الشلل، ويردون بمزيد من التظاهرات والاعتصامات وبخطاب ثوري لا يقبل أنصاف الحلول. فيعاود الرئيس الكرَّة بخطبة تناور بسحرِ معسول الكلام، وقناع الأبوة المستعطفة، ومدائح الذات. وما إن تظهر أماراتِ الخَدَر على كلامِ البشر، حتى تبرز المخالب من تحت القناع فتنزوي البلاغة وتحتلُّ ساحةَ الثورة حوافرُ الخيل وأخفافُ الجمال. وإذ يصمد المتخندقون خلف أحلام الحرية أمام وحشية الأب العطوف، يصبح خطابُهم عامراً بالتنكيت والفكاهة والمفارقة. فتحاول الخطبة الرئاسية الأخيرة خوض معركة جديدة بمناورات قديمة، فلا تحصد سوى الغضب والاستفزاز. ثم لا شيء سوى السقوط.

لقد افتتحتُ هذه المقالة بقولين عن محاكاة السياسيين لمكر الثعالب، وعن زيف معسول الكلام. وإذا كان كثير من الحكام يضعون كتابِ **الأمير** أسفل وسائدهم، فإن على الشعوب أن تتعلم كيف تُنصت جيداً إلى الكلمات. ففخاخ البلاغة لا تقتنص من لم يَحجُب عنه ظاهرُ المعنى الذي يتبدَّى هنا نقيضَ الإشارة في الوجهِ الأخفى هناك.

الهوامش

(١) تطرح النصوص التي ألقاها مبارك مُشكِل تسمية. فقد استخدم الإعلام الرسمي المصري تسميتين للإشارة إليها: الأولى تسمية «كلمة» – التي تبدو التعبير الأكثر دقة عن هذا الحدث الخطابي؛ غير أنها معرَّضة للالتباس مع معنى آخر للكلمة، هو «مفردة» – والثانية تسمية «خطاب» – وهي بدورها معرضة للالتباس مع مصطلح «خطاب» discourse كما أستخدمه في هذه المقالة. أما تسمية «بيان»، فلم تُستخدم على نطاق واسع للإشارة إليها. وقد اخترت أن أستخدم تسمية «خطبة» بوصفها نوعاً عاماً، تشمل أنواعاً فرعية مثل «الكلمة» و«البيان».

(٢) تذكر الباحثة ميشيل دون أن أسامة الباز – المستشار السياسي لمبارك لما يزيد على عقدين من الزمان – طلب نصيحة أحد الخبراء بشأن سبل تحسين صورة الرئيس العامة، فأوصاه بأن «الرئيس يجب ألا يتكلم خارج النص المكتوب، لأن ملاحظاته التلقائية كانت غالباً فظة إلى حد كونها مهينة، وتستدعي تعاملاً بالمثل مع الرئيس في المقابل» (دون، ص ٩٨).

(٣) لتصور نظري شامل للعلاقة بين السياق والخطاب يمكن الرجوع إلى Van Dijk, *Discourse and Context*. ولدراسة محورية حول أثر السياق الاجتماعي في معالجة النص والكلام يمكن الرجوع إلى Van Dijk, *Society and Discourse*.

(٤) لوصف كلاسيكي لمستويات الفصحى المعاصرة يمكن الرجوع إلى بدوي، ص ص ٩٨–٢٠٠.

(٥) كل الاقتباسات على لسان مبارك في متن المقالة مأخوذة من خطبه الثلاث التي يمكن مراجعة نسخ مرئية منها مثبتة في قائمة المصادر.

(٦) في استبيان – غير منضبط منهجياً – قمتُ بإجرائه في إحدى الجامعات المصرية أوائل شهر أبريل، ٢٠١١، ذكر أربعون من مجمل مائتين وخمسة من الطلبة والطالبات أنهم لم يتيقنوا بعد سماع العبارة مما إذا كان الرئيس سيترشح أم لا في الانتخابات القادمة؛ لغموض معنى «أنتوي» في أذهانهم، وأن الشروح التي قُدِّمت للخطبة بعد إلقائها هي التي أكدت معنى عدم الترشح.

(٧) لتحليل الجوانب التركيبية غير الإيقاعية لهذا التعبير يمكن الرجوع إلى عبد الحميد، ص ٧٤.

(٨) لمزيد من الأفكار المؤسِّسة حول روابط الدولة المصرية الحديثة مع العربية الفصحى، والتفاوت في رأس المال الرمزي لكل منهما، يمكن الرجوع إلى Haeri، ص ص ٣١–٦٨.

(٩) شهد ميدان التحرير – أبرز ميادين الثورة المصرية – ظاهرة مهمة في

الحروب البلاغية بين النظام والثورة. ففور انتهاء الرئيس من إلقاء خطبه، كان الميدان يُغمر بمنشورات مفنِّدة لما ورد فيها، وبخاصة للحجج التي تبدو مستحسَنة من أغلب المصريين. ومن الواضح أننا هنا أمام شكل مما يطلق عليه باختين الانتقاد العلني (overt polemic (Bakhtin، ص ص ١٩٦–١٩٧).

(١٠) لاستعراض ثاقب، وإن كان بالغ الإيجاز، لوظائف التأثير النفسي في خطبة ١ فبراير، يمكن الرجوع إلى مشبال، ص ١٣.

(١١) كل النصوص المترجمة في المقالة من ترجمة الكاتب، ما لم ينصُّ على غير ذلك.

(١٢) يقول مبارك في خطبته في مجلس الشعب في ٢١ يوليو ١٩٩٣، بمناسبة ترشيح مجلس الشعب له لفترة رئاسية ثالثة: «برغم المتاعب الضخمة والمشاق الهائلة التي كابدتها طوال فترتي الحكم السابقتين فإن نداء الواجب لا يدع للإنسان فرصة لاختيارٍ أفضل إلا أن يكون إلى جوار الشعب في هذه الظروف الدقيقة، يحمل شرف المسئولية مهما تكن المتاعب والمصاعب. . . . إن هذا المنصب الرفيع على سمو قدره وجلال مكانته لا يعني بالنسبة لي سوى الكد والعرق والجهد المتواصل حرصاً على مصالح شعبنا العظيم، لا مغنم ولا راحة، ولا مطمح ولا مطمع، ولكن كد وعطاء يتواصل ليل نهار حفاظاً على هذا الوطن العزيز». نقلاً عن الموقع الإلكتروني للهيئة العامة للاستعلامات («كلمة الرئيس»، د. ص.).

(١٣) المثال الأبرز لذلك هو بيان التنحي الذي ألقاه جمال عبد الناصر إثر هزيمة يونيو ١٩٦٧.

(١٤) انظر، على سبيل المثال، استطلاع الرأي بشأن تأييد رواد موقع **مصراوي** لما ورد في الخطبة عقب إلقائها («ثلثي قراء»، د. ص.). وعلى الرغم من المشكلات التي تعتري استطلاعات الرأي الإلكترونية، فإنها لا تخلو من دلالة، وبخاصة إذا أُخذت في الحسبان تعليقات القراء على نتائج الاستطلاعات.

(١٥) أستخدم النقطتين المتواليتين (..) علامة على الفاصل الزمني القصير (ثانية أو أقل) الذي يتخلل نطق العبارة. والنقطة (.) علامة على الفاصل الزمني الأطول (أكثر من ثانية). ومن المثير للاهتمام أن العبارة سُبقت بفترة صمت طويلة (خمس ثوانٍ وعشري ثانية) قبل البدء في قراءتها، صاحبَها تقليب مبارك في الأوراق التي أمامه. وهذه هي أطول فترات الصمت التي تتخلل كلامه في الخطب الثلاث. وقد أشرت إليها بالنقاط الخمس المتوالية في مفتتح العبارة.

(١٦) ينتشر فخا القوائم ثلاثية الأجزاء والثنائيات المتقابلة بكثافة في خطب مبارك قبل الثورة. انظر عبد اللطيف، **لماذا يصفق المصريون؟**، ص ص ١٥٧–١٦٠ و١٨٤–١٨٦.

(١٧) أستنِدُ إلى تصور ياكبسون لوظائف الاتصال اللغوي (ص ص ٢٧–٣٣).

(١٨) يُنسب تعبير «أنا الدولة، والدولة أنا» Je suis l'etat. L'État, c'est moi إلى لويس الرابع عشر (١٦٣٨–١٧١٥) ملك فرنسا.

(١٩) لدراسة تفصيلية لهذه الحجج يمكن الرجوع إلى عبد اللطيف، «كيف حاولت خطب مبارك إجهاض الثورة» .

(٢٠) أشير هنا على وجه التحديد إلى بكاء الأستاذة منى الشاذلي – إحدى أشهر المذيعات المصريات – على الهواء فور انتهاء الخطبة، في برنامجها الأكثر شعبية في مصر **العاشرة مساءً** («فيديو منى الشاذلي»، د. ص.).

(٢١) أعتمد هنا على بث قناة الجزيرة للخطبة الذي انقسمت فيه الشاشة، بعد دقيقة من بدء الخطبة، إلى نصفين طولياً: الأول يعرض البث المباشر للخطبة كما تنقله القنوات الحكومية، والثاني يعرض صورة حية لقطاع من الجمهور الهائل الموجود في ميدان التحرير، أثناء تلقيه للخطبة. رابط الخطبة مذكور ضمن مصادر النسخ المرئية للخطب الثلاث.

(٢٢) يمكن النظر إلى هذه الهتافات الحماسية على أنها حيلة نفسية لا شعورية لجأت إليها حشود الميدان لحجب صوت مبارك عن آذانها، واستبدال أصواتهم به.

(٢٣) يمكن الاطلاع على قائمة ضخمة من هذه الهتافات واللافتات والشعارات والنكات في كتاب إبراهيم عبد المجيد **لكل أرض ميلاد**.

(٢٤) يوجد قليل من الدراسات حول الوظائف البلاغية لتمثيلات المستقبل في الخطاب السياسي، من أهمها دراسة باتريشيا دونماير Dunmire عن كيفية تمثيل المستقبل لتبرير الغزو الأمريكي للعراق واحتلاله في خطبة جورج دبليو بوش في ٧ أكتوبر ٢٠٠٢.

(٢٥) استخدمت الخطب تعبير «التغيير»، ولم تستخدم مطلقاً تعبير «الثورة»، للإشارة إلى الأحداث. وذلك على الرغم من أن التسمية كانت مطروقة– في خطاب المحتجين – حتى قبل أن تبدأ الأحداث. وكل المفردات الواردة في الجدول – عدا كلمة ثورة – منقولة كما هي من متن الخطب الثلاث.

المصادر: نسخ مرئية من خطب مبارك الثلاث

خطبة ٢٨ يناير، ٢٠١١:
<http://www.youtube.com/watch?v=JWy3vl6iY-I>.

خطبة ١ فبراير، ٢٠١١:
<http://www.youtube.com/watch?v=1UYviVlIGFI>.

خطبة ١٠ فبراير، ٢٠١١:
<http://www.youtube.com/watch?v=ds0LwAuQ6jg&feature=related>.

المراجع العربية

أرسطو. **كتاب الخطابة**. ترجمة عبد الرحمن بدوي. بغداد: دار الشئون الثقافية العامة، ١٩٨٦.

بدوي، سعيد. **مستويات الفصحى المعاصرة: بحث في علاقة اللغة بالحضارة**. القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣.

بغورة، الزواوي. **الفلسفة واللغة: نقد «المنعطف اللغوي» في الفلسفة المعاصرة**. بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٥.

«ثلثي قراء مصراوي يؤيدون خطاب مبارك بعدم ترشحه مجدداً». **موقع مصراوي**. ٢ فبراير ٢٠١١.

<http://www.masrawy.com/News/Egypt/Politics/2011/february/2/.masrawy_reader.aspx>.

حاتم، محمد عبد القادر. **الرأي العام وتأثره بالإعلام والدعاية**. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٦.

دون، ميشيل. **الديمقراطية في الخطاب السياسي المصري المعاصر**. ترجمة عماد عبد اللطيف. القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١١.

شرابي، هشام. **البنية البطركية: بحث في المجتمع العربي المعاصر**. ترجمة حنا دميان. بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٧.

عبد الحميد، أحمد. «استراتيجيات الخطاب السياسي: قراءة في خطابات مبارك إبان الثورة». **أعمال مؤتمر قصر ثقافة الفيوم**. الفيوم: قصر ثقافة الفيوم، ٢٠١١. ص ص ٣٤–٦٦.

عبد اللطيف، عماد. «كيف حاولت خطب مبارك إجهاض الثورة: الوجوه المتقلبة للرئيس». **مجلة الثقافة الجديدة** ٢٤٧ (أبريل ٢٠١١): ص ص ٢٠–٢٧.

ـــــــــ. **لماذا يصفق المصريون؟ بلاغة التلاعب بالجماهير في السياسة والفن**. القاهرة: دار العين، ٢٠٠٩.

عبد الله، معتز سيد. **الحرب النفسية والشائعات**. القاهرة: دار غريب، ١٩٩٧.

عبد المجيد، إبراهيم. **لكل أرض ميلاد: أيام التحرير**. القاهرة: أخبار اليوم، ٢٠١١.

«فيديو منى الشاذلي تبكي بعد خطاب مبارك الثاني». **موقع يوتيوب**. ١٢ يونيو ٢٠١١.
<http://www.youtube.com/watch?v=FHkVQydCtNk>.

«كلمة الرئيس محمد حسني مبارك في الجلسة المسائية لمجلس الشعب بعد إبلاغه بقرار المجلس بترشيحه لفترة رئاسية ثالثة». **موقع الهيئة العامة للاستعلامات**. ٢١ يوليو ١٩٩٣.
<http://www.sis.gov.eg/ar/Story.aspx?sid=24775>.

لاكوف، جورج. **حرب الخليج أو الاستعارات التي تقتُل**. ترجمة عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم. الدّار البيضاء: توبقال للنشر، ٢٠٠٥.

لاو تسو. **كتاب الطاو**. ترجمة محسن فرجاني. القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥.

مشبال، محمد. «الثورة المصرية وخطاب الاستمالة». **روافد** ١٩ (٢٠١١): ص ١٣.

مكياڤيلي، نيقولا. **كتاب الأمير**. ترجمة محمد مختار البرقوقي. القاهرة: الهيئة العامة للكتاب، ٢٠٠٠.

ياكبسون، رومان. **قضايا الشعرية**. ترجمة محمد الولي ومبارك حنون. الدار البيضاء: توبقال للنشر، ١٩٨٨.

المراجع الأجنبية

Atkinson, M. *Our Masters' Voices: The Language and Body Language of Politics*. London: Methuen, 1984.

Bakhtin, Mikhail. *Problems of Dostoevsky's Poetics*. Ed. and trans. Caryl Emerson. Minneapolis: U of Minnesota P, 1984.

De Rosa, Silvana. "The 'Boomerang' Effect of Radicalism in Discursive Psychology." *Journal for the Theory of Social Behavior* 36.2 (2006): 161-201.

Dunmire, Patricia. "Preempting the Future: Rhetoric and Ideology of the Future in Political Discourse." *Discourse & Society* 16 (2005): 481-513.

Haeri, Niloofar. *Sacred Language, Ordinary People: Dilemmas of Culture and Politics in Egypt*. NY: Palgrave, 2003.

Krebs, Ronald and Patrick Jackson. "Twisting Tongues and Twisting Arms: The Power of Political Rhetoric." *European Journal of International Relations* 13 (2007): 35-66.

Orwell, George. *1984*. NY: Harcourt, Brace, Jovanovich, 1949.

Van Dijk, Teun Adrianus. *Discourse and Context: A Cognitive Approach*. Cambridge: Cambridge UP, 2008.

______________________. *Society and Discourse: How Social Contexts Influence Text and Talk*. Cambridge: Cambridge UP, 2009.